الجذور الأولى لظاهرة الفصل والوصل

قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني

إعداد

د / هلال عطا الله عثمان محمد

وكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

« قسم البلاغة والنقد »

مقدمة البحث :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين .

نتناول في هذا البحث جانباً من ظاهرة لغوية لها أهمية كبيرة في العربية، هي الفصل والوصل بين الجمل . فقد نبَّه على دقتها ومكانتها كثير من العلماء المتقدمين ، وخصوصاً البلاغيين منهم ، إذ أفردوا لها قسماً خاصاً من أقسام علم المعاني ، وأولوها عناية فائقة . ولعل أول من فصل الحديث فيها ، وأبرز حدودها وعناصرها هو الإمام عبد القاهر الجرجاني .

ونحن سنحاول أن نقف عند جذورها الأولى ، ومراحل تطورها ، قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وذلك من خلال كتب اللغة والنحو والتفسير والأدب ، لأننا نعتقد أن الشيخ عبد القاهر ، كغيره من البلاغيين ، قد أفاد كثيراً من الدراسات التي سبقته ، وخصوصاً من النحو الذي جعله أساس نظريته في النظم .

يعتبر علم المعاني أحد الأركان الأساسية التي تشكّل بناء البلاغة العربية وعمودها ، فإذا كان علم البيان يتبع ورود المعنى الواحد في طرق مختلفة ، وذلك عن طريق الاستعارة والكناية وغيرها ، ليحترز بالوقوف على ذلك الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه[(١)] ، وإذا كان علم البديع

---

(١) مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي ٨٦ ، المطبعة الأدبية ، مصر ، ط١ . وينظر الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح : لجلال الدين القزويني ١٥١ ، مطبعة محمد صبيح ، مصر ، وينظر : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، علوم حقائق الإعجاز : ليحيى بن حمزة العلوي اليمني ، مطبعة المقتطف ، مصر سنة ١٩١٤م .

يعتني بوجوه تحسين الكلام « بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة »[١] .

في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه[٢] ، ويرى ابن الأثير في مقدمة كتابه المثل السائر : « أن مفاتيح الدرس البلاغي هو النحو والتصريف وغيرها »[٣] فإذا كان علم النحو يبحث في أجزاء الجملة وأركانها متفرقة ، ويعتني أكثر ما يعتني بالمفردات[٤] أي أن دراسته تحليلية أكثر منها تركيبية[٥] ؛ فإن علم المعاني يبحث في ترابط هذه الأجزاء واتصالها ، وفيما توحيه من معنى وهي مجتمعة . ومن هنا يمكننا القول إن علم المعاني هو الخطوة المكملة لعلم النحو ، بمعنى أن العلمين يكمّل أحدهما الآخر .

وظاهرة الفصل والوصل ، باعتبارها إحدى مجالات علم المعاني ، تكتسي أهمية بالغة في الدراسات البلاغية ، وقد نوّه بأهميتها كثير من العلماء ، وإذا حاولنا أن نتتبع مراحل تطوّرها ونموّها وجب علينا أن نرصد ذلك عند فريقين من الدارسين ، يمثل الفريق الأول : المتكلمون،

---

(١) الإيضاح ٢٤٣ . نبه الشيخ عبد القاهر على أنه ليس الغرض مما اعتدنا على تسميته بالمحسنات اللفظية مجرد تحسين الكلام وتلوينه ، وإنما لكل ذلك فضل في زيادة توضيح المعنى . أسرار البلاغة ٤ وما بعدها.

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ٦٢- ٦٣ .

(٣) ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الموصلي ٩/١ تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ١٩٣٩م .

(٤) ينظر : مفتاح العلوم ٤١ ، ومفتاح السعادة ١٤٤/١ .

(٥) ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها ، تمام حسان ١٦ – دار الثقافة – الدار البيضاء .

وبعضُ من طغت على كتاباتهم الجوانب الأدبية والفنية ، ويمثل الفريق الثاني النحاة واللغويون.

المتكلمون :

ساق الجاحظ في معرض حديثه عن البلاغة عند الأمم ، هذه العبارة المقتضبة: « قيل للفارسيّ: ما البلاغة ؟ فقال: معرفة الفصل والوصل»[١].

كما أننا وجدنا عنده نصين يشيران إلى أهمية الظاهرة ، فقد روي أن رجلاً من بني مجاشع قال : إن الحسن جاءهم في دم كان فيهم ، فخطب ، فأجابه رجل فقال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا، بل قل : لله ثم لوجوهكم[٢] .

ويروي الجاحظ أن الخليفة أبا بكر مرّ في السوق برجل معه ثوب ، فقال أبو بكر: أتبيع الثوب؟ فقال الرجل: لا عافاك الله ، فقال أبو بكر: لقد علمتم أو كنتم تعلمون، قل: لا وعفاك الله[٣] ، والحق أن الرجل أصاب في ردّه؛ لأن المقام مقام فصل، ذلك أن أصل العبارة: لا أبيع عفاك الله. فالجملة الأولى خبرية، والثانية إنشائية ؛ لأنها تضمنت الدعاء ، وهذا مما يوجب الفصل، إلا أن البلاغيين جوّزوا الوصل في العبارة دفعاً للّبس والإيهام[٤] .

---

(١) البيان والتبيين لأبي عثمان بن بحر الجاحظ ٨٨/١ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي .

(٢) ينظر : البيان والتبيين ٢٦١/١ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ينظر : التلخيص في علوم الدين لجلال الدين القزويني ١٩٠ ضبطه وشرحه الأديب عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ومطول على التلخيص للتفتازاني ٢٠١ .

وقد أورد الجاحظ هذين النصين ، والعبارة قبلهما ، دون تعليق ، حتى أنه لم يذكر أن فيهما فصلاً أو وصلاً .

أما ابن قتيبة في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » فلم يذكر شيئاً عن الظاهرة باستثناء تناوله لبعض أدوات العطف ومعانيها [١] .

وقد قسم أبو الحسن الرماني البلاغة إلى عشرة أقسام ، ولم ترده إشارة إلى هذا الأمر ، يقول : « والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان » [٢] .

إلا أنه هو الآخر ، ألف كتابين تناول فيهما بعض الأدوات ومعانيها [٣] .

أما أبو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) ، فقد أورد العديد من الأقوال والشهادات التي تشير كلها إلى دقة هذا الموضوع وأهميته في اللغة العربية [٤] .

---

(١) ينظر : تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ٤١٤- ٤١٦ تحقيق وشرح ، أحمد صقر ،دار إحياء الكتب العربية .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . قسم : النكت في إعجاز القرآن للرماني ٧٠ ، تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر .

(٣) له كتابان حول الأدوات ، أحدهما منازل في الحروف ، والثاني في معاني الحروف .

(٤) اكتفى أبو هلال بالإشارة إلى أهمية هذا الموضوع دون أن يعالج بنوده ، أو يبين مواطنه، وختم حديثه عنه قائلاً : « وهذا باب لو أطلقت العنان فيه لطال ، وشغل الأوراق الكثيرة ، ينظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ٤٧٣، ط ١ .

ومن ذلك أن الخليفة المأمون سأل أحداً عن البلاغة ، فلما فرغ من كلامه ردّ المأمون قائلاً : « ما عدل سيفك عن الغرض ، ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته ، ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ، ولا يكره المعاني على إنزالها في غير منازلها ، ولا يتعمد الغريب الوحشيّ ، ولا الساقط السُّوقي ، فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللالئ بلا نظام »[١] .

وقال أبو العباس السفّاح لكاتبه : « قف عند مقاطع الكلام وحدوده ، وإياك أن تخلط المرعى بالمهمل ، ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل »[٢] .

ونقرأ في مواضع أخرى من كتاب الصناعتين أن يزيد بن معاوية كان يقول : « إياكم أن تجعلوا الفصل وصلاً ؛ فإنه أشد وأعجب من اللّحن»[٣] . وأن أكثم بن صيفى كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكُتّابه : « افصلوا بين كل منقص معنى ، وصلوا إذا كان معجوناً بعضه ببعض»[٤] وكان الحرث بن أبي شمر الغسّاني يقول لكاتبه المرقش : « إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعيته من الألفاظ ، فإنك إذا مزقت ألفاظك بغير ما يحسن أن يمزق نفرت القلوب عن وعيها ، وملّته الأسماع ، واستثقلته الرواة»[٥] .

---

(١) كتاب الصناعتين ٣٤٩ .

(٢) المصدر السابق ٣٥٠ .

(٣) المرجع السابق ٣٥١ .

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣٥ .

(٥) نفس المصدر السابق ، ومذق : مزج .

وروى أبو هلال أم المخبّل هجا الزبرقان بن بدر فقال :

وأبوك بدر كان ينتهي الحصى وأبي الجواد ربيعة بن قبـــال[١]

فقال الزبرقان : لا بأس ، يخان اشتركا في صنعة[٢] .

فمجيء الواو العاطفة في أول الشطر الثاني عكس المعنى الذي كان المخبل يقصده ، فلم يهج والد الزّبرقان وحده ، كما كان يريد ، وإنما هجا والده أيضاً ، ولذلك استحسن الزّبرقان هجاءه .

ولم يذكر الخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن) شيئاً عن المسألة[٣] .

وحذا كل من الباقلاني في (إعجاز القرآن) وابن رشيق في (العمدة) حذو الجاحظ ، إذا اكتفيا بذكر التعريف الذي أورده للفارسي[٤] .

أما أبو الحسين بن وهب الكاتب فقد تناول في كتابه (البرهان في وجوه البيان) الظاهرة بشيء من الاختصار ، ولم يورد سوى نماذج قرآنية قليلة ، بالرغم من أنه ذكر أن هذا الفن في القرآن كثير[٥] ، فقد ذكر قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

---

(١) ينظر المصدر السابق ٣٥٣ . ونهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . (الحصى تصحيف الخصي) .

(٢) كتاب الصناعتين ٣٥٣ .

(٣) ينظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – القسم الخاص بالخطابي .

(٤) ينظر : إعجاز القرآن للباقلاني ١٩٣ تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف – مصر .

(٥) ينظر : البرهان في وجوه البيان لأبي الحسن بن وهب ١٥٦ . تحقيق د .أحمد مطلوب ، د .خديجة الحديثي – العراق سنة١٩٦٧م .

دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾[١] ثم قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[٢] ثم رجع إلى الكلام الأول فقال : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣] .

ويضيف ابن وهب قائلاً : ومن ذلك ما حكاه لقمان في وصيته لابنه إذ قال له:﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٤] ثم قطع وأخذ في فن آخر فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾[٥] إلى قوله : ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٦] ثم رجع إلى تمام القول الأول في وصية لقمان فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٧-٨] .

وأما ابن سنان الخفاجي ، معاصر عبد القاهر الجرجاني ، فلم نجد عنده إشارة إلى الظاهرة التي نعالجها[٩] .

---

(١) المائدة : آية ٥ .

(٢) نفس الآية والسورة .

(٣) البرهان في وجوه البيان ١٥٦ – ١٥٧ .

(٤) لقمان : آية ١٣ .

(٥) لقمان : آية ١٤ .

(٦) لقمان : آية ١٥ .

(٧) لقمان : آية ١٦ .

(٨) ينظر البرهان في وجوه البيان .

(٩) ينظر : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تصحيح : عبد المتعال الصعيدي – القاهرة ١٩٥٣م.

النحاة واللغويون :

ولقد وجدنا في كتاب سيبويه إشارات كثيرة إلى ما يمكن أن ندخله ضمن ظاهرة الفصل والوصل ، فقد علّق على قول المهلهل :

ولقد خبطن بيوت يشكر خَبْطة أخوالُنَا وهم بنـــو الأعمـــام[١]

علّق قائلاً : « كأنه حين قال : خبطن بيوت يشكر ، قيل له : وما هم ؟ فقال : أخوالنا وما هم ؟ فقال : أخوالنا وهم بنو الأعمام »[٢] .

كما أورد بيت الفرزدق :

ورثت أبي أخلاقه عاجل القِرى وعبط المهارى ، كُومُها وشَبُوبها[٣]

وقال : « كأنه قيل : أي المهارى ؟ فقال : كومها وشبوبها » ، ونقرأ في موضع آخر من الكتاب : « .... وذلك قولك : إن زيداً منطلق العاقلُ اللبيبُ يرتفع على وجهين : على الاسم المضمر في منطلق كأنه بدل ، فيصير كقولك: مررت به زيد إذا أردت جواب بمن مررت؟ فكأنه قيل له:

---

(١) الكتاب : لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) ٢٦/٢ تحقيق عبد السلام هارون .

الخبط : الضرب الشديد ، والمراد بالبيوت القبائل .

(٢) ديوان الفرزدق ٦٦/١ تعليق عبد الله الصاوي .

(٣) ديوان الفرزدق ٦٦/١ جمعه وعلق عليه : عبد الله إسماعيل الصاوي ، مطبعة الصاوي ، ط ١ سنة ١٩٣٦م ، والبيت في الديوان كما يلي :

ورث ألي أخلاقه عاجل القرى وضرب عزاقيب المثالي شَبُوبها[٣]

وهو من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك ، والشبوب : السيف يشب فيه ضوءه إذا سل وهو التهابه .

من ينطلق ؟ فقال : زيد العاقل اللبيب [١] .

وقد وجدنا نماذج مشابهة كذلك عند الأخفش في (معاني القرآن) إذ حين ذكر قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ [٢] علق قائلاً : « ..... ورُفع على (هم شياطين) كأنه إذا رفع قيل له ، أو علم أنه يقال له : ما هم أو من هم ؟ فقال : هم كذا وكذا [٣] .

وقال في قوله تعالى :﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ [٤] قال : كأنه قيل لهم : ماذا لهم ؟ وما ذاك ؟ فقيل: هو كذا وكذا [٥] .

وهذا الأسلوب هو ما سمّاه البلاغيون ، فيما بعد، بالاستئناف؛ أي أن الجملة الأولى تتضمن سؤالاً غير ظاهر، فتكون الجملة الثانية جواباً له [٦] .

وقد ترددت مصطلحات (القطع) و (الابتداء) و (الاستئناف) بكثرة عند سيبويه والفراء في معاني (معاني القرآن) والأخفش في معاني (معاني القرآن) أيضاً ، وأبي عبيدة في (مجاز القرآن) ونحن نورد نماذج من كتبهم ، على سبيل التوضيح ليس غير ، يقول سيبويه : «.....

---

(١) ينظر : الكتاب ١٤٧/٢ .

(٢) سورة الأنعام آية ١١٢ .

(٣) ينظر : معاني القرآن للأخفش ٣٩٨/١ .

(٤) سورة آل عمران : آية ١٥ .

(٥) معاني القرآن للأخفش ٣٩٨/١ .

(٦) ينظر دلائل الإعجاز ١٦٦ ؛ الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري ٢٥/١ دار المعارف – بيروت ؛ التلخيص ١٨٦ .

وإن جعلته صفة فجرى على الأول ، وإن شئت قطعته فابتدأته ، وذلك قولك : الحمد لله الحميد هو ، والحمد لله أهل الحمد ، والملك لله أهل الملك ، ولو ابتدأته فرفعته كان حسناً ، كما قال الأخطل :

نفسي فداءُ أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجذ يوم باسل ذكرُ

الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفةُ الله يُستسقى به المطر [١]

يقول في موضع آخر : « وقال عروة الصعاليك العبسي :

سَقَوْني الخمر ثم تكنَّفوني ... عداةَ الله من كذب وزور [٢]

وإنما شتمهن بَشيء قد استقر عند المخاطبين ، وقال النابغة :

لعمري وما عمري عليّ بَهيّن ... لقد نطقتُ بُطلاً عليّ الأقارع

أقارع عوف لا أحاول غيرها ... وجوه قرود تبتغي من تجادع [٣]

وزعم يونس أنك إن رفعت البيتين جميعاً على الابتداء ، تضمر في نفسك شيئاً هو أظهرته لم يكن ما بعده إلا رفعاً» [٤] .

ونقرأ عن مصطلح الاستئناف ، وقد عبر عنه الائتناف ، كثيراً من

---

(١) ديوان الأخطل ١٩٧/١ ، ١٩٩ تحقيق د . فخر الدين قبادة ، دار الأصمعي ، حلب ، والبيتان في الديوان غير متلازمين مثلما روى سيبويه ، وفي الديوان : فهو فداء أمير المؤمنين إذاً . والنواجذ : أقصى الأضراس ، والباسل : الكريه ، والذكر : الصلب ، والغمر : الماء الكثير .

(٢) ديوان عروة ٣٢ دار صادر – بيروت ١٩٦٤م .

(٣) ديوان النابغة الذبياني ٤٩-٥٠ تحقيق د. شكري فيصل – دار الفكر .

(٤) ينظر : الكتاب ٧٠/٢ ، ٧١ .

النماذج ، يقول الفراء : « وقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[١] رُفعن وأسماؤهن في أول الكلام منصوبة، لأن الكلام تم وانقضت به آية ، ثم استؤنف ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ في آية أخرى ، فكان الأقوى للاستئناف .... »[٢] ، ونقرأ في موضع آخر ، عند الفراء أيضاً : « وقوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾[٣] فإنه ثنى ، لأن الوالدين قد ذُكِرا قبله ، فصار الفصل على عددهما ، ثم قال : (أحدهما أو كلاهما) على الائتناف ، كقوله : ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا ﴾[٤] ثم استأنف فقال : ﴿كَثِيرٌ مِنهُمْ﴾[٥] ، وكذلك قوله : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾[٦] ثم استأنف فقال : ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وقد قرأها ناس كثير ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ ﴾ جعلت ﴿ يَبْلُغَنَّ ﴾ فعلاً لأحدهما[٧] .

ونقرأ عنده أيضاً: « وقوله ﴿هَارُونَ أَخِي﴾[٨] إن شئت أوقعت (اجعل)

---

(١) البقرة ١٧-١٨ وسياق الآيات : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

(٢) معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء صـ١٦ تحقيق : محمد علي النجار ، وأحمد يوسف – ط ٢- ١٨٨/٢ .

(٣) الإسراء ٢٣ ، وسياق الآيات : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

(٤) المائدة : ٧١ .

(٥) المائدة: ٧١ .

(٦) الأنبياء : ٢١ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٨ .

(٨) سورة طه : ٣٠ .

على ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ وجعلت الوزير فعلاً له، وإن شئت جعلت ﴿ هَارُونَ أَخِي﴾ مترجماً عن الوزير فيكون نصب للتكرير، وقد يجوز في (هارون) الرفع على الائتناف، لأنه معرفة مفسَّرة لنكرة ، كما قال الشاعر:

فإن لها جارين أن يغدرا بها ربيب النبي وابن خير الخلائق[١]

ونقرأ في نفس الباب عند أبي عبيدة : « ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[٢] ثم انقطع النصب وجاء الاستئناف ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ قال النابغة:

توهمت آيات لها فعرفتها ستّة أعوام ، وذا العام سابعُ

ثم استأنف فرفع فقال :

رمادٌ ككحل العين لأيّاً أبينه ونُؤْى كجِذم الحوض أثلمُ خاشع[٣]

ونقرأ في موضع آخر عند أبي عبيدة أيضاً : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾[٤] أي من منامنا ، ثم جاء : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[٥] استئناف[٦].

وهناك مصطلح آخر ورد أيضاً عند هذا الفريق وهو (التفسير) ويقابل عند البلاغيين (التوضيح والبيان) وقد جعل هؤلاء قسماً قائماً

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٠ .

(٢) البقرة ١٧- ١٨ .

(٣) ديوان النابغة ٤٣ .

(٤) يس : ٥٢ .

(٥) يس : ٥٢ .

(٦) مجاز القرآن ١٦٣ .

برأسه في الفصل بين الجمل ، يقول الفراء : «وقوله ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ [١] تقرأ بالكسر على الاستئناف مثل قوله ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [٢] يستأنف وهو يفسر ما قبله [٣].

ويقول في موضع آخر : « وقوله ههنا ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ [٤] وفي موضع آخر ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [٥] بغير واو ، وفي موضع آخر ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ [٦]، فمعنى الواو أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح كأنه قال : يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح ، ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب ، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملاً في كلمة ، ثم فسرته فاجعله بغير الواو ، وإذا كان أوله غير آخره فالواو . فمن المجمل قول الله – عز وجل – ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [٧] فالآثام فيه نية العذاب قليله وكثيره ، ثم فسّره بغير الواو فقال ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [٨] ولو كان غير مجمل لم يكن ما ليس به تفسيراً له ، ألا ترى أنك تقول : عندي دابتان بغل وبرذون،

---

(١) النمل ٥١ .

(٢) سورة عبس ٢٤- ٢٥ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢٩٦/٢ .

(٤) سورة إبراهيم : ٦ .

(٥) البقرة : ٤٩ .

(٦) الأعراف : ١٤١ .

(٧) الفرقان : ٦٨ .

(٨) الفرقان ٦٩ .

ولا يجوز : عندي دابتان وبغل وبرذون وأنت تريد تفسير الدابتين بالبغل وبالبرذون ، ففي هذا كفاية عما نترك من ذلك فقس عليه » [١] .

فالنص كما يبدو صريح لا يحتاج إلى تعليق ، إذ أن فيه إشارة واضحة إلى فكرة (التوضيح والبيان) عند البلاغيين .

وإذا تقدمنا قليلاً من الزمن وجدنا الأنباري (المتوفى سنة٣٢٨هـ) يخصص كتاباً ضخماً للوقف والابتداء أسماه (إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل) عَرَّف في بدايته المواطن التي لا يصح الوقف عندها ، وهي كثيرة جداً ، نقتطف منها ما يلي : « واعلم أنه لا يتم الوقف على المضاف دون ما أضيف إليه ،ولا على المنعوت دون النعت ، ولا على الرافع دون المرفوع ، ولا على المرفوع دون الرافع ، ولا على الناصب دون المنصوب ، ولا على المنصوب دون الناصب ، ولا على المؤكَّد دون المؤكِد ، ولا على المنسوق دون ما نسقته عليه ، ولا على (إن) وأخواتها دون اسمها ، ولا على اسمها دون خبرها ..... » [٢] ثم مثل لكل حالة بنموذج من القرآن الكريم ، وذكر أن الوقف لا يكون إلا مع تمام المعنى [٣] ، ثم ذكر بعد ذلك أن الوقف على ثلاثة أوجه : وقف تام ، ووقف حسن ليس بتام ، ووقف قبيح ليس بحسن ولا تام ، ومثل لكل نوع بنموذج أو نموذجين من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله : « فالوقف التام هو الذي يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ، ولا يكون ما بعد ما يتعلق به كقول

---

(١) معاني القرآن للفراء ٦٨/٢ – ٦٩ .

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ١١٦/١ تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان – دمشق ١٩٧١م .

(٣) المصدر السابق ٩٦١/٢ .

الله تعالى :﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١] ويحسن الابتداء بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٢] وقف تام ،وكذلك ﴿ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣] وقف تام [٤] ثم أخذ بعد ذلك في التطبيق فراح يبين مواضع الوقف والابتداء في القرآن الكريم مع إظهار اختلافات العلماء والقرّاء في ذلك أحياناً ، وكان يكتفي في أحيان كثيرة بالقول : هذا وقف تام ، وهذا حس، وذاك قبيح ، دون تعليق أو توضيح .

نلمس من خلال هذا العرض لبوادر ظاهرة الفصل والوصل قبل الإمام عبد القاهر أن معالمها لم تكن واضحة ومضبوطة ، وإنما كانت كالبذرة المغمورة التي تحتاج إلى عناية ورعاية لتنمو وترى النور ، ومع ذلك فإنها فتحت الأبواب واسعة أمام اجتهادات البلاغيين ، وفي مقدمتهم الشيخ عبد القاهر ، فاستطاعوا ، وقد وجدوا الطريق أمامهم ممهداً أن يؤصلوا هذه الظاهرة ، ويضعوا لها الحدود والقواعد ؛ فأصبحت مرسومة الأبعاد ، ظاهرة الأقسام ، ولعل فضل الشيخ كبير في هذا المجال ، إذ أن معظم البلاغيين الذين عقّبوه تأثروا بما كتب ، وساروا على هدي معالجته لهذا المبحث وغيره ، فقد خصص له عبد القاهر فصلاً طويلاً في كتابه (دلائل الإعجاز) نبّه فيه على أهمية الظاهرة ، ودقتها في اللغة العربية ، يقول : « اعلم أن العلم ينبغي أن يُصنع في الجمل ، من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة

---

(١) البقرة : ٥ .

(٢) البقرة آية : ٦.

(٣) البقرة : ٦ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ١٤٩/١ .

منها بعد الأخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص والأقوام طُبِعُوا على البلاغة ، وأتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام ، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل والوصل ، وذلك لغموضه ودقة مسلكه ، وكونه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة »[١] ، ويقول في موضع آخر : « واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه خفي غامض ، ودقيق صعب إلا وهذا العلم أغمض وأخفى ، وأدق وأصعب ، وقد قَنعَ الناس فيه بأن يقولوا إذا أرادوا جمله قد تُرِك فيها العطف ، إن الكلام قد استؤنف ، وقُطِع عمّا قبله ، لا تطلب أنفسهم فيه زيادة على ذلك ، ولقد غفلوا غفلة شديدة»[٢]

أما عند أبي القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري ، فإن هذه الظاهرة أصبحت جزءاً من تطبيقاته في تفسيره : الكشاف ، فقد نبه في مقدمة كتابه هذا أنه سيعتمد خصوصاً على علمي المعاني والبيان في تفسير القرآن الكريم ، لما لهما من أثر في كشف أسراره ونكته ولطائفه .

يقول : « ثم إن لأملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح ، ومن غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق مسلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه ، وإحالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام ،

---

(١) دلائل الإعجاز ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق ١٦٣ .

وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن علل اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهّل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنفير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همةٌ في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ »[1].

ونحن نسوق هاهنا نماذج من تطبيقاته ، على سبيل التوضيح فقط ، يقول عن الآيات الأولى من سورة البقرة ، « ومحل ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الرفع ؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر مع ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لـــــ ﴿ ذَلِكَ ﴾ أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه ، ويجوز أن ينصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف ، والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذا المحال صفحاً، وأن يقال: إن قوله ﴿ الـــم﴾ جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ جملة ثانية ، و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثالثة ، و ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث حيء بها متناسقة هكذا من غير نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بألولى معتنقة لها ،

---

(١) الكشاف ٣/١ .

وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة [١].

ويقول عن آية الكرسي [٢] : فإن قلت : كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف ، قلت : ما فيها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه ، والبيان متحد بالمُبيّن ، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب بين العصا ولحائها ، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق ، وكونه مهيمناً عليه غير ساهٍ عنه ، والثانية لكونه مالكاً لما يُدَبره ، والثالثة لكبرياء شأنه ، والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق ، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضي ، والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلّها ، أو لجلاله وعظم قدره » [٣].

أما أبو يعقوب السكاكي فإنه يترسم خطوات الشيخ عبد القاهر ، فينوه هو الآخر بدقة هذا الموضوع ولطافته إلا بإمعان النظر ، وطول التأمل ، ثم يقرر أن تمييز مواطن الفصل والوصل يُعدُّ (محل البلاغة) ومنتقد البصيرة ، ومضمار النظار ، ومعيار قدر الفهم ، ومسبار غور الخواطر ، ومنجم صوابه وخطأه ، ومعجم جلائه وصداه ، وهي التي إذا طبقت فيها المفصل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعلّى ، وأن لك في إبداع وشيها اليد الطولى » [٤].

ومن ههنا فهو يؤكد أن هذا المبحث يحتاج إلى « تقرير وافٍ ،

---

(١) الكشاف ١/٢١ .

(٢) البقرة /٢٥٥ .

(٣) الكشاف ١/١٥٤ .

(٤) مفتاح العلوم ١٣٤ .

وتحرير شافٍ »[١] ويعتبر هذا الركن إحدى العقبات التي لا يمكن أن يتجاوزها إلا بعد اجتياز كافة عقبات البلاغة .

أما من جاءوا بعد هؤلاء الثلاثة فإنهم كانوا مقتدين ومقتفين للأثر لا أكثر ، لأنهم في معظمهم تأثروا بما كتب الشيخ في دلائل الإعجاز[٢] .

ومن هنا يمكننا القول إن ظاهرة الفصل والوصل نمت وترعرعت على أيدي البلاغيين ، فأصبحت ركناً مهماً من أركان علم المعاني .

---

(١) السابق ١٣٤ .

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني ٢٦٠ تحقيق : د. خديجة الحديثي ، د . أحمد مطلوب ، الطراز ٣٣/٢ .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير ، ضياء الدين أبو الفتح ،١٩٥٦: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة : مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- الأخطل غياث بن غوث : الديوان . تحقيق : د . فخر الدين قبادة – دار الأصمعي ، حلب .
- الأخفش : سعيد بن مسعدة ، ١٩٨٥ – معاني القرآن . تحقيق : د . عبد الأمير محمد أمين الورد ، ط ١ ، عالم الكتب – بيروت .
- الأنباري ، محمد أبو بكر ، ١٩٧١ : إيضاح الوقف والإبتداء في كتاب الله عز وجل . تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان ، دمشق .
- الباقلاني ، محمد أبو بكر : إعجاز القرآن تحقيق أحمد صقر – دار المعارف بمصر .
- التفتازاني ، سعد الدين ، ١٣٠٤– مطوّل على التلخيص – المطبعة العثمانية ..
- الجاحظ ، أبو عثمان بن بحر ، ١٩٦٨: البيان والتبيين . تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، ط٣، مكتبة الخانجي .
- الجرجاني ، عبد القاهر ١٩٨٢ – أسرار البلاغة : تصحيح : محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت ١٩٨٣ – دلائل الإعجاز ، تحقيق : د . محمد رضوان الداية .
- حسّان تمام– اللغة العربية مبناها ومعناها– دار الثقافة– الدار البيضاء .
- الخفاجي، عبد الله بن سنان: سر الفصاحة، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي.
- خلف الله محمد: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – دار المعارف بمصر.

- ابن رشيق ، الحسن أبو علي ، ١٩٥٦ : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، مطبعة السعادة .
- الزمخشري ، محمود أبو القاسم : الكشاف – دار المعارف – بيروت.
- الزملكاني ، كمال الدين عبد الواحد ، ١٩٧٤: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، تحقيق : د . أحمد مطلوب ، د . خديجة الحديثي ، ط ١ ، مطبعة العاني – بغداد .
- السكاكي ، يوسف ابو يعقوب : مفتاح العلوم ، ط ١ ، المطبعة الأدبية بمصر .
- ابن السكيت ، يعقوب، ١٩٥٦: شرح ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: د. شكري فيصل – دار الفكر .
- سيبوية ، عمرو بن عثمان أبو بشر : الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت .
- طاسن كبرى زاده ، أحمد بن مصطفى : مفتاح السعادة ومصابيح السيادة في موضوع العلوم ، تحقيق : كامل كامل بكري ، وعبد الوهاب أبو النور ، دار الكتب الحديثة – مطبعة الاستقلال – مصر .
- أبو عبيدة ، معكر بن المثنى ، ٩٨١ : مجاز القرآن ، تحقيق : محمد فؤاد سزكين ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- العسكري ، أبو هلال : كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، ط ١ .
- العلوي ، يحيى بن حمزة : الطراز (المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) مطبعة المقتطف – مصر .